



فكري

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

"20 عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (5602) السنة الحادية والعشرون - الأربعاء (31) كانون الثاني 2024

مarrak
m a r r a k

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة للإعلام والثقافة والفنون



إلياس أبو شبكة

"أفاعي الفردوس" لإلياس أبو شبكة: على خطى بودلير... جزئياً

إبراهيم العريس

د

إذا كان اسم الشاعر اللبناني إلياس أبو شبكة قد ارتبط منذ بداياته الشعرية في سنوات العشرين من القرن الفائت، باسم الشاعر الفرنسي شارل بودلير، فإن ما يمكن أن نقوله لنا قصائد مجموعته الثانية- في الترتيب التاريخي للظهور، "أفاعي الفردوس"، هو أن تأثر شاعرنا اللبناني بزميله الفرنسي لم يكن مطلقاً بل جزئياً، على عكس ما هو شائع. حيث أننا في قصائد هذه المجموعة ستجابهنا ضروب عدة من التأثير لن يكون ذلك العائد إلى بودلير سوى أقلها شأنًا. صحيح أن أبو شبكة جعل مخطط مجموعته كلها وجوها العام يسيران على خطى مجموعة بودلير "أزهار الشر"، لكن الصحيح أيضاً أن ثمة ما لا يقل عن ثلاثة عناصر أخرى تلعب دوراً كبيراً من دون أن تكون على علاقة مباشرة بشعر بودلير.

د



< مهما يكن، بالنسبة إلى شاعر من طينة إلياس أبو شبكة ستكون المفاجأة الأولى لمن يقرأ شعره ويعجب به، أن يكتشف أن هذا الشاعر لم يعمّر في حقيقة أمره سوى أربع وأربعين سنة، قضى العامين الأخيرين منها يصارع الداء العضال الذي أصابه وأودى به، وقضى سنواتها الأولى وهو يعيش هاجس الموت الذي قضى على والده، غيلة عن طريق القتل، حين هاجمه لصوص في ١٩١٤ وقتلوه فيما كان يقوم برحلة بين بورسعيد في مصر والخرطوم في السودان.

< وفي كل الأحوال ربما كان الانطباع الأول الذي تتركه حياة وشعر إلياس أبو شبكة لدى قارئه، هو انطباع من يجد نفسه أمام شخص لم يعيش سوى الصراع في سنوات عمره القصيرة، الصراع ضد هاجس الموت، الصراع ضد المرض، الصراع ضد جمود بعض رجال الدين من الذين خبرهم في طائفة اليسوعيين واصطدم بهم باكراً، والصراع ضد الجمود في الشعر العربي، ولكن أيضاً ضد الانفتاح المبالغ فيه على الرمزية الفرنسية من قبل شعراء لبنانيين وعرب كان إلياس أبو شبكة يأخذ عليهم أهملهم التراث العربي، ثم الصراع ضد الخليفة التي كان غالباً ما يرتكبها وتخلّف لديه آثاراً نفسية ضخمة نراها ماثلة بقوة في شعره، وأخيراً الصراع ضد المرض الذي فتك

الموت لا أستحق أن تبكيه - يا سليمان وقد أثار نحولي/ كائنات الردى على العشرين - ما تقولين عندما تنظرين/ القوم جاءوا إلي كي يحملوني - وأنا جثة بدون حراك/ وخيال الحمام فوق جبيني - يا سليمان أنا أموت ضحوكاً/ ليس هذا الوجود غير مجنون (...).

< والحقيقة أن نظرة إلياس أبو شبكة إلى الموت والمرأة، وهي نظرة تبدو مجتمعة في هذه القصيدة بالتحديد، إنما تنبع تماماً من تجربته الذاتية، ولا سيما تلك المرتبطة بالمرأة وإن لم توضح الأبيات السابقة ذلك. فعلى رغم أن المرأة تحضر في كل شعر أبو شبكة وصولاً إلى حبيبة أيامه الأخيرة "غلاء" والتي خضها بأخر مجموعة صدرت له في حياته (١٩٤٥)، إلا أن حضورها مستقى مباشرة من امرأة الشعراء العذريين العرب الذين درسهم الشاعر في شكل خاص، لا من المرأة البودليرية... وذلك أمر بات من الضروري التركيز عليه في أية قراءة لهذا الشاعر الذي من المؤسف أن "حادثة" ما خلال العقود الأخيرة غيّبت عن الساحة الشعرية العربية مغنية معه جانباً أساسياً من الصورة العامة للذهنية العربية كما تجلت خلال النصف الأول من القرن العشرين وكان أبو شبكة من خير المعبرين عنا بحياته كما بشعره.

وأول هذه العناصر هو الموت الذي تختلف نظرتة إليه جزئياً عن رديفه لدى بودلير. فالموت لدى الشاعر اللبناني موت خاص مستقى من تجربتين ذاتيتين تتعلق أولاهما بموت أبيه غيلة كما سنرى، والثانية بإحساسه الدائم هو نفسه بجملة موت قريب. ومن هنا نرى الموت يسيطر تماماً على فكره وقصائده المجموعة. لكنه موت يحارب بالسخرية وبالحكم عليه بالعدم. وبعد ذلك هناك الكتاب المقدس الذي قرأه أبو شبكة جيداً وارتكز إلى الكثير من حكاياته في كتابته أقوى قصائده مستعيناً بشخصيات منه يحلها بديلة عنه في القصيدة.

< وبعد هذين العنصرين، ثمة المرأة التي تختلف لدى أبو شبكة عنها لدى بودلير اختلافاً جذرياً. بل إن النظرة إلى المرأة لدى الشاعر الرومانسي اللبناني تكاد في تناقضاتها وتناقض النظرة إليها تكون صنواً للحياة نفسها: فهي المرغوبة المخشية، الحنون والخائنة. ولعله في قصائده يحاول أن يدفعها إلى اختيار ما بين الموصفات الكثيرة التي يعزوها إليها. وهو ما يفعله مثلاً في واحدة من أجمل قصائد المجموعة والتي يخاطب فيها حبيبة - متوهمة! - هي "سليمة" قائلاً: "أسمعيني لحن الردى أسمعيني/ فحياتي على شفاير المنون - وانرفي دمعة علي/ فبعد

به وهو بعد في شرح شبابه وأول عطائه.

< ولد إلياس أبو شبكة عام ١٩٠٣ في نيويورك خلال زيارة كانت أمه تقوم بها إلى أقارب لهم هناك، لكنه سرعان ما عاد إلى لبنان، لتكون صدمته الأولى في ذلك الموت العنيف الذي قضى على أبيه. وتلقى الفتى تعليمه في مدرسة كهنوتية تركت لديه إحساساً غريباً ومكتفياً بالبعد الروحي، الذي وجدته متناقضاً مع ممارسات رجال الدين أنفسهم، فكان أن لجأ إلى قراءة الكتاب المقدس والنهل منه كبديل عن علاقة سيئة مع الكنيسة.

< ولقد اكتشف أبو شبكة الشعر باكراً، الذي اطلع عليه منذ نعومة أظفاره حيث ذهب تفضيله إلى الشعراء العذريين الذين عرفتهم بادية الحجاز، كما تأثر كثيراً في فترة لاحقة بشعر أبي العلاء المعري. ومهما يكن فإن الباحث اللبنانية ريتا عوض، إذ تجعل من الثقافة العربية أول الروافد الثقافية التي طبعت إلياس أبو شبكة، تقول إن الثقافة الفرنسية هي الرافد الثاني، حيث تأثر بخاصة بالرومانتيين من أمثال دي موسيه ولامرتين، قبل أن يكتشف شارل بودلير فيصبح شاعره الأثير ويكتب "أفاعي الفردوس" تحت تأثير قراءته ديوان "أزهار الشر". وأما الرافد الثالث الذي أثر في أبو شبكة فكان الكتاب المقدس الذي اكتشفه أبو شبكة واكتشف غناه الفكري والجمالي من خلال قراءته شعر ألفريد دي فيني الذي كان بدوره شديد التأثير بالكتاب المقدس.

< وهكذا، إذ أطل أبو شبكة على الحياة الشعرية اللبنانية والعربية اطل وفي جعبته هذا الانفعال بثلاثة مكونات اشتغلت عليه في شكل جيد، وبدأ انطلاقته منها ولسان حاله يقول كما كتب، عام ١٩٣٦، في جريدة "المعرض": "نريد أدباً جديداً نستقل به ونطبعه بطابع من نفوسنا، نريد أدباً يقوم على ثورة في الفكر والنظم والتقليد، نريد أدباً يخرج عن القاعدة التي سنّها المتقدمون ولو تهجم المتهاجمون. نريد أن نضحي بكل النظم والتقاليد الأدبية في سبيل الفكر والفن".

< وتقول الباحثة ريتا عوض، إن أهم ما في هذا القول أن الأدب الجديد الذي يدعو إليه أبو شبكة أدب عربي خالص، لا هو التقليدي القديم ولا هو في الوقت نفسه أدب غريب عنا". وهذا ما تستند فيه إلى قوله: "إنه تجديد نستقل به ونطبعه بطابع من نفوسنا، أي أن التجديد يجب أن يكون عربياً صرفاً غير مستورد من تجارب الآخرين ونتاجهم" وتضيف ريتا عوض "من هذا المنطلق رفض أبو شبكة اتباع المذاهب الفنية الغربية، وقاوم بشدة التيار الشعري العربي المثلد للمذهب الرمزي الرئيسي". غير أن أبو شبكة إذ رفض الرمزية الفرنسية، نراه يستعير عنها باتباع ما للرومانسية الفرنسية. وهل كان يمكنه إلا يكون رومانسياً ذلك الذي عاش تحت هاجس الموت طوال حياته من ناحية وشكلت المرأة، وحب المرأة بالنسبة إليه، بدءاً من أولغا التي أحبها وتزوجها وصار اسمها في شعره "غلاء" وصولاً إلى ليلي المتزوجة، وإلى المغنية المصرية السمراء التي لا اسم لها في أي من المراجع التي كتبت عن إلياس أبو شبكة؟

< مهما يكن لم يترك إلياس أبو شبكة شعراً كثيراً، وإن كان قد ترك شعراً متفاوت التوجه والجودة خمس مجموعات حملت عناوين: "القيتارة" (١٩٢٦) و "أفاعي الفردوس" (١٩٣٨) و "الألحان" (١٩٤٢) و "نداء القلب" (١٩٤٤) و "الي الأبد" (١٩٤٥) ثم "غلاء" (١٩٤٥)، بينما نشرت له بعد موته مجموعة شعرية عنوانها "صعيد الآلهة" تضم شعراً خطابياً. ونذكر للمناسبة أن أبو شبكة، إضافة إلى شعره الرومانسي الخالص، كتب شعراً وطنياً وخطابياً، لا يرقى في مستواه بالطبع إلى مستوى شعره العميق الجميل الذي كتبه خلال المرحلة الأخيرة من حياته.

من أرشيف جريدة الحياة

ماذا بقي من "أبو شبكة"؟

إيلي مارون خليل

”

قبل في الشاعر الياس "أبو" شبكة الكثير، منذ وفاته حتى اليوم. بل منذ كان لا يزال مالتاً المنابر الصحافية والأدبية والإذاعية، خصوصاً ما يتصل بحياته العاطفية التي شغقت وشاعت. وخصوصاً ما له علاقة بالزومنتيقية؛ ببودليير؛ بألفرد دو فينيي (De Vigny)؛ بألفرد دو موسيه (De Musset)؛ بحركة التجديد؛ بحزب الكتلة الوطنية اللبنانية (أمين الدعاية والإعلام)؛ بالحزب الشيوعي اللبناني؛ بالإيمان؛ بمعاداته بعض رجال الدين... وبجرائته السياسية: "لا بد يا نفسي من السجود..."، والاجتماعية (مواجهاته للمحتكرين عهد الرئيس بشارة الخوري)، وتجرؤه الديني (مقاطعة عظة المطران الحاج، في مأتم أحد آل العضم)... فماذا يبقى؟

“

يبقى الكثير. لعل من أبرز ما يجدر أن يقال، أو يدرس، فيه وعنه، أسلوبه النثري؛ أسلوبه الصحافي؛ أسلوبه في الترجمة؛ أسلوبه في القصة؛ أسلوبه الساخر؛ شخصيته وثقافته وانعكاسهما في كتاباته الشعرية والنثرية، كما في ترجماته؛ إدخاله الرمز والأسطورة، وقبل الرواد، على القصيدة العربية، وتحديدًا في كتابه البارز (أفاعي الفردوس). لكن كلاً من هذه المواضيع، لا تكفيه إشارة في مقالة قصيرة مثل هذه، بل تلزمه دراسة معمقة يستحقها الموضوع والشاعر. ما ساكن فيه وعنه، في هذه العجالة، هو موضوع ثقافي عام يتجذر من ثقافة الشاعر المسيحية، أو أثرها فيه: شخصية وشاعر، عنوانه: كيف يبدو، للقراري، أن ديوان (أفاعي الفردوس) هو "كرسي اعترافه"، وتالياً، أفحص ضميره، وتاب وندم وقصد القصد الثابت في عدم العودة إلي ما اعترف به؛ إن حصل ذلك، فكيف نفسر علاقته ب المطربة السمراء، ومن وحدها بعض مقطوعات (إلى الأبد) وهي: صاح في عينيك صداخ الأمان...؛ رأيتك في قلبي فحلمي منور...؛ تقربني نفسي فتبعني "غلو" ... الغرام الذي أطال شجونني... مر على قلبي المعنى... وقصائد ثلاث: "أنت لي"، من (نداء القلب)، وقصيدتها: "حيرتني" و"قلبي على فمك"، وقد نشرهما في مجلة صديقه، بل "مكتشفه"، فؤاد حبشيش (المكتشف)، سنة 1936. وكيف نعلل علاقته ب(إيلي) ملهمة (نداء القلب) و(إلى الأبد)، وقد تجاوزت حدود السرّ و"المعقول" و"المقبول"، في ذلك الزمن، وقد ارتدت الأسود، حداً عليه، طيلة سنوات سبع، غير هياهة؛ وإن لم يحصل، فما قيمة ذلك؟ الاعتراف بالخطيئة، في المسيحية، سرٌّ من أسرار الكنيسة السبعة، إنما يقوم، أولاً، على الإقرار الصادق، الصريح، التام، الكلي، بما قام به "المعترف". فلنسمع أبا شبكة، في بداية "الأفاعي"، وفي القصيدة الأولى:



أسودم هذا العصر، لن تتحجبي فبوجه أمك ما برحت مقنعة...
قذفتك صحراء الرّنى بحضارة تكلي، مشوّهة الوجوه، مُفجّعة
لكن أبا شبكية، وهو في قلب الجحيم، يُبقي في نفسه، حيناً إلى الطهر، ما يُشير إلى أنه "ضمير يتعذب، يعاني، فهو يدرك سقطته، ويحاول الخروج منها، للخلاص:

إن في قلبي البغي، خيالاً من عفاف ما فاجرته البغايا
إن تكن حفتي المدامة ملكي فخيال العفاف ملك سوايا
هذا "السوي"، هو الحب النقي الذي لم يفارق "داخله"؛ لذلك هو، عي قول فؤاد حداد، "ضمير في قعر الخطيئة"؛ هذا الضمير يحيا صراعاً نفسياً رهيباً بين السلب والإيجاب، الشرّ والخير، الفساد والطهارة، يبدو حاراً. لكنه الصّراع بين الشهوة والتوبة، بين الحواسّ والروح... يعرف الشاعر، ويعي، "الحالة" التي "تسكنه"، أو هو "ينسكن" فيها، ويريد الانتصار، الانتصار الصعب، لا المستحيل، وتأتي قصيدة (عهدان) لتثبت هذه المعرفة، وتدل إلى أي "تخبط" كان يعاني. وهو كذلك في التاليف (الشهوة الحمراء) إنها المشكلة الكبرى. الأسفاف والارتقاء في جهنم واحدة، هي الجسد الذي "يسف" بصاحبه، وتحاول روحه أن "تسمو" به، فيصبح الكائن "مشطوراً"، كل شطر، منه، يجمع في اتجاه. وفي ختامها تتغلب الشهوة، وهي، مرة بعد، رمز حضارة العصر. ينتبه إلى "هوية" التي آل إليها، فيشتهي الموت (قصيدة: "شهوة الموت"). ثم يتوجه، حاراً، صادقاً، نادماً، تائباً، قاصداً عدم السقوط "مُجدداً، فيركع مخاطباً ربّه، مُصلباً (الصلاة الحمراء)، وفيها الاعتراف كله، بما يحتوي من صدق، وانسحاق، وتوبة، هي من صلب "سرّ" الاعتراف، في المسيحية الكاثوليكية، كم يبدو الإنسان، هنا، تائباً إلى الخلاص! وبعد ذلك تأتي قصيدة (الدينونة)، وهي، كذلك، من صلب "التعاليم"، فيصور نفسه أمام إبليس، ويُقيم، معه، حواراً من طرف واحد، فيطلب منه:

حول خيالك عني ولا تخيم علياً
خائفاً، يبدو، من "الجحيم"، مُتمنياً ألا "يغرق" في لظاها:
إبليس ليست جهنم داري، فحول خيالك
ويحلم، في ختامها، بالغفران:

إذا بصوت من الأرض التي صفتت يقول للنار: "أهل الأرض قد غفروا".
ويُدرج الشاعر، في ختام "أفاعيه"، قصيدة (الطرح)، فيعتبر أن طفله الذي تحول إلى "طرح"، هو عقاب له، خطاياها والآثام، كثيرة، مشوّهة لنفسه وللروح. فيجدد توبته، ويغصه، يتساءل:

إن في الحب، صورة الله، لكن أين في الخلق، صورة الخالق؟

لقد رأينا، في هذه اللحظة العجلى، تأثير "سرّ الاعتراف" في المسيحية عبر هذا الكتاب، من خلال قصائده الثلاث عشرة، قصيدة قصيدة، بحسب تسلسلها فيه. أرى أن هذا التسلسل مقصود. من الاعتراف بدون توبة، إلى الاعتراف والتبرير، إلى الاعتراف الصادق، فالقوبة، فالصلاة، فالانسحاق، فالدينونة، فالقصاص. كأن شاعرنا، دخل، في أفاعي الفردوس، "كرسي الاعتراف" وأقر باتامه، قصد التوبة والتطهر.

إن هذه التجربة، في الشعر العربي الحديث، تمثل قمةً في الصدق والانفعال. من يقرأ مذكرات الشاعر، عن السنة 1929، ويقرأ القصائد، يكتشف العلائق والروابط الوثيقة التي تشير إلى "الأحداث الحقيقية". لقد ترجم أبو شبكة حياته شعراً. وكان صادقاً مرتين: في الحياة، وفي الشعر! وليس ذلك بغريب عليه، هو القائل في نداء القلب، وفي ختام قصيدة (أعذب الشعر):
فيا أذن، لا تدعك في القول بهجة ويا قلب علم: أعذب الشعر ما صدق!

واضطجعي معه...
قومي ادخلي، يا بنت لوط، على الخنى وازني، فإن أبك مهذمضجعه...
ومن خلال ذلك يُعمم التجربة، فيعتبر أن حضارة العصر مُشوّهة، فذرة، لأنها امتداد لسودم ولحالة ابنتي لوط، وتالياً المرأة:



... إن في الحسن، يا دليلة، أفعى كم سمعنا فحجها في سرير
أوليس هذا إقراراً واضحاً؛ لكنّه "يبرر":
والبصير البصير يُخدع بالحسن، وينقاد كالضربير الضربير
والتبرير محاولة "تبرئة". إذا، لاندامة حتى الآن. وهي واجبة في الإقرار، وبعده. يتابع، في القصيدة الثانية: فطوّفت في عمر من الليل والخنا يُعزّب، والأرجاس تُرغي وتزبد
وللمما العالي نشيش ورغوة كأن الوري مستنقع يتهدّد...
هذا إقرار واضح، ولا "يبرره" الشاعر، ما يعني "الانغماس" في "الاعتراف" وما فيه، أو يستتبعه، من ندم وتوبة وقصد "ثابت" لعدم العودة إلى ما "يعترف" به. فهل؟
يبدو أن لا. فما قوله، في القصيدة الثالثة، يوضح: سنملكها ما شئت، بعد، فلا تخف فإن ابنتها لما يزل يجهل الأمر (٧)
وفي الرابعة "يبرره" نفسه، ويحاول أن ينسب الخطيئة إلى المرأة: "إن النساء إذا راوغن لا عجب! لكنّه، وفي القصيدة عينها، يعود فيرى لها عدواً: وحق طفلك، لم أشمت بإمرأة زلت بها قدم، أو غيرها ذهب فربّ أنتي، يخون البؤس هيبتها والبؤس أعمى، فتعبي ثم تغلب
ثم، في الخامسة، يصب غضبه على المرأة، لكنّها شرّ كلها، وشرّ ما فيها "أنها مستغرقة في الفساد، في الإغراء "لاصطياد" الرجل، ولو كان والدها، مستعيراً أسطورة (سدوم). وأخبار (لوط) وابنتيه:
مغناك ملتهب، وكأسك مترعه فاسقي أبك الخمر،

هنري زغيب يكمل ملامح أبو شبكة شخصاً وشاعراً

محمد علي شمس الدين

أقصى الشاعر هنري زغيب أعواماً يجمع وثائق ورسائل وصوراً وشهادات ونصوصاً غير منشورة ليحتفل على طريقته بالشاعر الراحل الياس أبو شبكة (١٩٠٣-١٩٤٧)، ولما اكتملت المادة بين يديه انجز كتابه "الياس أبو شبكة من الذكرى إلى الذكرى: لكي تحب أتيت الأرض" في طبعة فنية أصدرتها دار درغام. والكتاب مرجع لقراءة سيرة شاعر "أفاعي الفردوس" ومساره بالصور والوثائق النادرة وبعضها ينشر للمرة الأولى. ولم يدع زغيب شاردة في حياة الشاعر إلا ضمها وجمع شهادات حية لأشخاص رافقوا الشاعر وعرفوه عن كثب، عطفاً على مقالات كتبت عنه وكلمات ألقبت في مناسبات عدة، هنا قراءة في الكتاب.

ينعقد هذا الكتاب على سيرة رجل فيها الكثير من الغرابة والتشويق، وفيها الكثير من الشعر، حياة قصيرة لا تكاد تتسع لهذا العذاب الطويل، وهذا الكذب المضني، وهذا الشعر الطالع كجبار البركان. ونسأل: هل أهمية الياس أبو شبكة في أنه أحب أم كتب الحب؟ أم هي في هذا التداخل بين الحب والقصيدة إلى حد أننا نتوهم أحياناً أن الحكاية (الحب) تبدأ من هنا في حين أن القصيدة هي التي تبدأ. الفارق بين الواقعة التاريخية والقصيدة أو الرواية أو اللوحة، كالفارق بين الواقعة التاريخية والأسطورة: الأسطورة من نسج الخيالة الفردية والجماعية، تنتمي إلى عالم الخيالة الغرائبي والمعقول، فيقبلها العقل البشري مع معرفته بغيراتها حتى ولو كانت لها بدور أو مشابهاً مع بعض الوقائع، في حين أن الحقيقة التاريخية تنتهي إلى واقع عملي أساسه ما حدث بالفعل "لا ما يمكن أن يحدث" أو "يظن أنه حدث"، حتى كأن الشاعر أو الفنان يبتكر التاريخ ولا يسرده، كأنه يروي ما لم يحدث قط إلا في أعماقه، فشمس الشاعر الداخلية هي حقيقته الشعرية على امتداد العصور والمدارس.

سيرة مضاعفة

هل كتاب هنري زغيب هو عمل تاريخي؟ أم سيري؟ إحيائي أم تقييمي؟ أم أنه عمل آخر بين هذه جميعاً؟ وماذا نسميه؟ مسرح هذا العمل قريب جداً. فنحن اليوم في المكان عينه الذي كانت تدور فيه أو في أطره الحوادث وتكتب القصائد. اعتراني ألم قوي وأنا أقرأ بعض فصول السيرة المضاعفة للياس أبو شبكة. فهو، وإن كان شخصاً من شهوة وقلق ديني عميق، إلا أنه شخص من ألم خالص، بل لعل فيه من الغرابة والجنون والألم ما يفوق أية صورة له.

في حال احتدام حبه لليلي (ليلى معوض)، مثلاً، يذكر شهود كثير من أهل بلدته ومعارفه أو أصدقائه، أنه كان يقف طوال الليل، وحتى في الليالي الشتوية الباردة، في مقبرة مقابلة منزل ليلي، ينظر إلى الضوء في غرفتها ولا يعود إلا إذا انطفأ الضوء. ويروون أنه كان يرسل إشارات حبه على صورة تنهدات عميقة يبدأ بها كلماته في الإذاعة، أو عبر مناشف بيضاء ترفع في منزل صديقه حبيب عودة المقابل منزل ليلي، إذنا بوجوده، حتى إذا مرض الشاعر، ارتفعت مقابل منزل ليلي راية سوداء بدل الراية البيضاء فعلمت أن حبيبها مات. ويوم دفنه في الزوق كان ماطرًا وعاصفًا، تابعته ليلي عن بعد حرجًا وخوفًا. وإحفاً أحرق ليلي، مرغمةً، كل الرسائل المتبادلة بينهما، وغرقت رسائل الحب وكلماته في رمادها إلى الأبد.

كل ما يحيط بسيرة "السيد الياس أبو شبكة" وحبه وإلامه هو تراجمي ومثير ومحرض على الكتابة. وهنا نتساءل: من من الاثنين صنع الآخر: السيرة الشعرية؟ أم الشعر السيرة؟ الكتاب... الإشكالات

نجد في كتاب هنري زغيب كل ما يصاويل قارئ أو مهتم أن يعرفه عن تفاصيل حياة أبو شبكة وتطوحاته وعداباته منذ ولادته حتى وفاته. ففي الكتاب شهادات وكتابات وتفاصيل التفاصيل، تكشف الغطاء حتى عن الأنفاس الخفية والذنبات الداخلية لأحاسيس الشاعر وأفكاره، تارة بكتابات الشخصية وطورا بشهادات مؤرخة وموثقة ممن عاشوه، وبينهم أصدقاء مقربون عارفين بيوطن أسرارهم، وحبيبات كتب فيهن معظم شعره مثل أولغا ساروفيم، حبيبته وزوجته بعد حين، وليلى التي أحبها وكتب فيها ديوانه "نداء القلب" وإلى الأبد. لقاءات ومكاشفات كثيرة موثقة ومؤرخة كشف



فيها المؤلف عن أستاذ أبو شبكة، حتى الخفية منها والأشد خفاءً.

وأستطيع القول إن هنري زغيب عرّى الياس أبو شبكة الشخص والشاعر تعرية تامة، وعرّى شخصاً مسرحة من حبيبات وأصدقاء ومجالين، حتى الذين هم من أهل بلدته ما كانوا يعرفون حقيقته الشعرية فسوم "الأخوت" تارة أو "الجنون" أو "العصبي".

فماذا فعل المؤلف بالشاعر؟ ولماذا الياس أبو شبكة ترك أبوابه مُشرعة إلى هذا الحد؟ لو لم تحرق رسائل الحب المتبادلة بينه وبين ليلي لما بقي في الرجل وسيرته سر. وحتى لو لم تحرق لن تكشف سرا عن

(...) "لم يستولد الكلمة بل أطلقها مباشرة. الكلمة عنده أداة لا غاية كما رأى إليها الرمزيون". ويضعه في طبعة التجديد: "الحدائويون يحبون نضارته ولا يرفضون كلاسيكته". وواضح أن المؤلف رافق أبو شبكة رفقة طويلة في أمكانه وأهله وأصدقائه ومعارفه وحبيباته على امتداد نصف قرن من الزمن، وكتب عنه الكثير، وجمع عنه الكثير من رسالة إلى خبر إلى وصف إلى قصيدة فرأى فشهادة، لماذا هذه المرافقة والاستقصاء البعيدان لو لم يكن الشغف رائد هنري زغيب؟ الذين كتبوا في الياس أبو شبكة من كتاب وشعراء مجالين له، أو في ما بعد، متفانون لكنهم يكادون يجمعون على أن قصصه وسيرة حياته وعلاقات الحب التي نسجها، هي مدخل ضرورية لقصائده. وأنه شاعر ذو ديباجة عربية فيها بعض التحرر، على تأثره بالثقافة الفرنسية وبالشعراء الرومنطيين الفرنسيين. إن ما هو وُضع في كادر أدبي ونقدي جامد، هو الذي كان يعتبر المدارس والنظريات بمثابة "وحوش" حين تطلع من أوجها يشكر بعضها في بعضها الآخر ("في حديث الشعر" - مقدمة "أفاعي الفردوس"). وهو يرغب في أن يرد الشعر إلى "الطبيعة" أمه (المقدمة نفسها). وفي حديث الشعر يشير إلى صعوبة تحديده بل استحالة تحديده... فالدائرة غير المحدودة لا تنحصر في الحدقة الضيقة، والشعر يسعى وراء حقيقة غامضة يستحيل أن تنال، ويتكى على آراء شعراء ومفكرين فرنسيين في مقدمته، بينهم الأب بريمون الذي يرى أن "لا حاجة لفهم معنى الشعر، فالسحر المنبثق عن موسيقاه يؤثر في النفس تأثيراً مباشراً".

هذه المقدمة مقدمة مثقف بثقافة غربية واسعة، لكنه يدخل فيها رأياً للأصمعي في الوحي الذي هو أساس الشعر: "الوحي يتولد على صفاء المزاج الطبيعي، وقوة مادة النور في النفس" (المسعودي في "مروج الذهب").

تكشف المؤلف في هذا الكتاب عن سيرة مكشوفة للياس أبو شبكة أو تكاد، وهو ممتن واكبوا وأظهروا هذا الانكشاف القوي لهذه السيرة. قلبه كان الشاعر نفسه أبرد إلى العن الواضح سيرته وأحواله وفصلها حتى لم يعد فيها مكان لظن أو تخمين. ونسأل: لماذا هذه المقارنة أو الموازنة بين سيرة الشاعر الذاتية وقصائده؟ لدي إحساس بأن السيرة هنا أهم من الشعر. أكثر جاذبية. أغنى. وبأن قصائد أبو شبكة مؤسسة على المعاني، وتفكرت إلى الصورة البسيطة أو المركبة، وإلى القوة اللغوية أو الغريزة اللغوية (كما عند سعيد عقل مثلاً)، وإلى الحكمة السرمدية المنزلة كاية (كما في أبيات للمتنبي أو المعري مثلاً).

عن موقع جريدة الحياة
"الحياة" صحيفة يومية سياسية عربية دولية مستقلة. هذا اختيارها مؤسسها كامل مروة منذ صدور عددها الأول في بيروت ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦، (٢٥ صفر ١٣٦٥هـ). وهو الخط الذي أكدته ناشرها منذ عاودت صدوراً عام ١٩٨٨. منذ عهدها الأول كانت "الحياة" سبّاقة في التجديد شكلاً ومضموناً وتجربة مهنية صحافية. وفي تجديدها الحديث سارعت إلى الأخذ بمستجدات العصر وتقنيات الاتصال. وكريست المزاج الفريدة بين نقل الإخبار وكشفها وبين الرأي الحر والرصين. والهاجس دائماً التزام عربي منفتح واندماج في العصر من دون ذوبان.

اختارت "الحياة" لندن مقراً رئيساً، وفيه تستقبل أخبار كل العالم عبر شبكة باهرة من المراسلين، ومنه تنطلق عبر الأقمار الاصطناعية لتطبع في مدن عربية وأجنبية عدة.

تميزت "الحياة" منذ عودتها إلى الصدور في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٨ بالتنوع والتخصّص. ففي عصر انفجار المعلومات لم يعد المفهوم التقليدي للعمل الصحافي راوياً نظماً قارئاً متطلب، ولم يعد القبول بالقليل والعام كافياً للتجاوب مع قارئ زمن الفضائيات والإنترنت. ولأن الوقت أصبح أكثر قيمة وأسرع وتيرة، تأقلمت "الحياة" وكتابتها ومراسلوها مع النمط الجديد. فصارت أخبارها أكثر مباشرة ومواضعها أقصر وأقرب إلى التناول، وكان شكل "الحياة" رشيقاً منذ خرجت بحلتها الجديدة.

باختصار، تقدم "الحياة" نموذجاً عصرياً للصحافة المكتوبة، أنيقاً لكنه في متناول الجميع، هو زيادة النخبة في مراكز القرار والمكاتب والدواوين والبيوت، لكنه رفيق الجميع نساء ورجالاً وشباباً، فكل واحد يجد فيه ما يمكن أن يفيد أو يعبر عن رأي أو شعور أو يتوقع توجهات.

من أرشيف جريدة الحياة

أبو شبكة والمرأة

د. ثائر زين الدين

ما من شيء يلفت انتباه قارئ الياس أبي شبكة، كما يفعل حضور المرأة في شعره؛ والسبب أن هذا الحضور ينطوي على كثير من الخصوصية وبعض الغرابة.

خرج الشاعر إلى معترك الحياة قبل أن يتمّ تحصيله العلمي، ففاضل وكافح ومشى على الأثواب، وعمل في تحرير مجموعة من الصحف اللبنانية "صوت الأحرار" و"المكشوف" و"الجمهور"، وترأس القسم الأدبي في الإذاعة اللبنانية (أواخر الانتداب الفرنسي).

لكن علاقة الشاعر مع الناس - على العموم - لم تكن علاقة سوية، لقد عاش - على الأغلب - غربة، أو ما يشبه الغربة عن الحياة العادية؛ وكان يستشعر الوحشة في علاقته بالعالم، ومن المؤكد أن مجمل حياته النفسية يوحى "أن شعوره بالخلل الاجتماعي كان أكبر عائق دون راحة باله، ولم يخالجه قط أي إحساس بالتقصير في حقله، كان هؤلاء الناس، هذا الوري" كما يعبر في أكثر من قصيدة، هم الذين يثيرون في دنياه الشعريّة، غمامة الأسي، وضباب الشك، وغبار القلق والاضطراب، وكان يؤلمه ما يشهد من عبوديات في حيوات من حوله، وما يلاحظ في بلده من تخلف عن السير في ركب الحرية، واندفاع وراء اللذائذ الوقتية يصرفهم عن التحسس بالمعاني الرفيعة".

ولقد أشار الشاعر فليكس فارس - وهو صديق أبي شبكة - في معرض حديثه عن "القيثارة"، أن أزمة أبي شبكة مع الدنيا هي أزمة "قيم"، وهي في النهاية أزمة مجتمع يسود الظلم فيه شريعة، ويستولي البؤس عليه نظاماً؛ إنها إذا المصيبة الاجتماعية، يحمل ثقلها الشاعر، ولا يستطيع أن يلقيها عن ظهره. وهنا تبزغ المرأة. أليست المرأة هي الأقدار على خلق شيء من التواصل بين الشاعر والدنيا؛ أليست من يستطيع تحقيق "المصالحة" ما بين المبدع والحياة من حوله؛ ومن جانب آخر؛ ألم تكن المرأة - في بعض الحالات - هي تلك القشة التي تقصم ظهر الشاعر، فتدفعه إلى الفرار من الدنيا، والقطيعة معها؟! وعلى كل حال فقد عرفنا عن أبي شبكة - من خلال ما كتبه عنه بعض أصدقائه ومجاليه، ومن بعض أحاديثه - أنه خاض علاقات مع المرأة - قد لا تكون كثيرة من حيث العدد، لكنها تركت أثراً حاداً في حياته وشعره، أولها قصته مع أولغا ساروفيم، التي أحبها عشر سنوات تقريباً، ثم تزوجها زواجا غريباً، وقد استخدم اسمها في معظم شعره، بعد أن أخضع أحرفه إلى الإبدال والقلب، فبدأ بنا أمام غلواء، وستحمل إحدى أهم مجموعات الشاعر هذا الاسم.

روت أولغا نفسها للباحث جهاد فاضل بعض تفاصيل علاقتها بالشاعر، ولكنها كانت يوم ذاك عجوزاً تجاوزت الثمانين، زارها الباحث في بيتها في زوق مكابيل، واستطاع بصعوبة أن يتحدث إليها، ومما كتبه عن ذلك: "أن غلواء لم تكن تحب أن تتحدث عن أسرة الياس أبي شبكة، وبخاصة عن شقيقة زوجها، الظاهر أن أسرة أبي شبكة، أرفع مقاماً في الزوق من أسرة غلواء، ولذلك تمنّت أوجيني لشقيقها علاقة عاطفية أفضل من علاقته مع غلواء، وزواجا غير هذا الزواج. في الأساس كانت المرأتان: أوجيني وأولغا صديقتين، وكانت المنازل قريبة من بعضها، ولكن عندما علمت أوجيني أن شقيقها يفكر بالزواج من أولغا ساروفيم قالت لشقيقها: "أما نحن وإما هذه المرأة؛ ولذلك طالبت علاقة الياس بأولغا قبل الزواج".

وتؤكد أولغا أن سبب تأخر الزواج هو فقر الشاعر، وعدم قدرته على تقديم ما يلزم للحياة الزوجية، وينسجم مع كلامها هذا ما جاء في "مفكرات وخطرات"، وهو عمل يضم وحيات الشاعر: كتب يوم ١٦ شباط ١٩٣١: "استدنت من خطيبتني غلواء عشر ليرات سورية ونصف. فتأمل شدة الطفر إلى أين دفعتني"، ويكتب في ١٩ شباط ١٩٣١: "بشّرت أولغا هذا الصباح بأن زواجنا أصبح قريباً جداً، ففرحت وغرورقت عيناها



ما دام في الأرض من صلب الرنى عَقْبُ لا مثلما نكّر الإفرنج لورهم ولا كما نكرت عفرائها العرب ومنذ ذلك الحين وقعت في الصحف على ألف شهوة حمراء في ألف قصيدة بيضاء" ولن نناقش المقيوس السابق، مع كل ما يخيره من غرائبية، وصراع داخلي في نفس الشاعر بين إيمانه المسيحي الشديد وشهوته القوية؛ وهو الشاب المراهق، ومع تصريحه بحب المرأة، وهو في الآن نفسه يحب غلواء، ومع إعلان أنه لم يقترف الإثم؛ مع أنه اعتاد زيارة مخدعها، وسنترك كل هذا إلى فقرات لاحقة، لكن علينا أن نشير إلى أن الأبيات السابقة جزء من مجموعة "أفاعي الفردوس"، وستتمخض التجربة السابقة عن كثير من الأبيات في قصائد مختلفة، وكأنه لم يستطع طوال عمره أن ينسى تلك الحادثة. ويؤكد أنطوان قازان أن السيدة بطلة المقيوس السابق موجودة فعلاً: "إنها وردة... سيدة، على أنوثة عارمة، وقسط من الجمال وفير، أما حظها من الثقافة فغير يسير. كان لها زوج وطفل، عاشت رديحاً من الزمن في جوار الخليج الذي كان له في نفس الشاعر غير انطباع".

مستل من بحث (صورة المرأة في شعر الياس أبي شبكة)

هي المرحلة التي تتصارع فيها العاطفة البريئة والشعور العنيف، في مفترق الطرق بين المدرسة والمدينة. كان الزوج نائباً والولد طفلاً. وكنت أختلس من غلواء ساعات أصرقها في مخدع هذه المرأة، ولم يكن يخطر في بالي أن الحب سينحدر يوماً من جذعنا الأعلى، حتى جرى ذلك في ليلة ماطرة هلك نصفها في الخمر، وكانت نبذا... وبدرت مني التفاتة شاردة على الحائط فوقعت عينا على صورة الزوج.. فهربت، هربت من مخدع من أحب، وكانت الليلة ماطرة والطريق سوداء، على أن جذورا من قصيدة كانت تقطع من كياني: "ما لي أرى القلب في عينيك يلتهب، طيف من الشهوة الحمراء تغزله خمر الليالي... ووجهك الشاحب الجذاب.. وحق طفلك.

وفي اليوم التالي كتبت هذه القصيدة:
لا تقنطي إن رأيت الكاس فارغة
يوماً ففي كل عام ينضج العنب
قد أشرب الخمر لكن لا أدنسها
وأقرب الإثم لكن لست أرتكب
لم أرتكب الإثم في تلك الليلة، على أنني... وعلى أن جذورا من قصيدة كانت تقطع من كياني، وفي اليوم التالي كتبت هذه القصيدة:
أجل ستذكرك الأعباب والحقب

بالمدموع وقالت: ينبغي أن لا نبقي هكذا أكثر من ثلاثة أشهر، وعلى م بنيت كلامي؛ على هذا: وهو أتي سأقبض عشرين ليرة فرنسية ذهباً من شركة مياه بيروت، ومئة ليرة سورية من النافعة (تعويضات وراثية عائلية). وأريعمئة ليرة سورية من نتاج كتابي (الرسوم). وتقف أم الشاعر أيضاً ضد زواجه بأولغا؛ ربما بسبب ما تناهى إلى سماعها عن "سلوك" غلواء، فيتحدى الشاعر كل ذلك ويخبر حبيبته ذات مساء أنه سينزوجها الليلة، ويحضر "خورياً" إلى منزل أهلها، ويجري مراسيم الزواج في البيت؛ وليس في الكنيسة كما هو مألوف، ويسهر أبو شبكة مع عروسه في منزل أهلها، ثم يغادرها لينام في بيته.

ومما عرف فيما بعد أن الشاعر أقسام علاقة مع سيدة متزوجة ذات طفل، في الآن نفسه الذي أحب فيه غلواء، والدليل الواقعي الصارخ على ذلك - كما كتب أنطون قازان(- هو ما كتبه أبو شبكة في مجلة الجمهور، الجزء ٧٩، صفحة ٧، سنة ١٩٣٨: "ومن غرائب هذه القوة في شعوري أنها كانت ترفع خيالي عن أخصب تربة في مفرس الأنوثة من هذه المرأة، وربما كان لهذه العفة أسباب لا رأي فيها للعاطفة البشرية، بل للضمير، فقد كانت ذات بعل وولد. وكنت في مرحلة شعورية عذراء،

إلياس أبو شبكة .. شاعر الفردوس بقصيدته العملاقة كجبل لا تهزه الريح

إسماعيل فقيه

ولد الشاعر إلياس بن يوسف بن إلياس أبو شبكة سنة ١٩٠٣ في بروفيانس بالولايات المتحدة أثناء سباحة قام بها والده. عاد إلى ضيعته وهو لم يتجاوز السنة. درس علومه في مدرسة عينطورة سنة ١٩١١، ولما وقعت الحرب العالمية الأولى توقف عن الدراسة، وبعد انتهائها استأنفها في مدرسة الإخوة المريميين في جونبة، فقصى فيها سنة دراسية واحدة، ثم عاد إلى مدرسة عينطورة. كان غريب الأطوار يتعلم على ذوقه، ويتمرد على أساتذته.

لقد خلف هذا الشاعر إلياس على قصر عمره، ما لا يقل عن ثلاثين كتاباً مطبوعاً في مختلف المواضيع والأحجام بين ترجمة وتأليف منها: الحب العابر، عنتر، القيثارة، جوسلين، طاقات زهر، العمال الصالحون، سقوط ملاك، مجدولين، الشاعر، المريض الصامت، تاريخ نابوليون، الروائي، الطبيب رغماً عنه، مريض الوهم، المثري النبيل، البخيل مانون ليسكر، بولس وفرجين، الكوخ الهندي، أفاعي الفردوس، الألسان، المجتمع الأفضل، لبنان في العالم، نداء القلب، تلك آثارها، قصر الحبر الغربي، إلى الأبد، غلواء، أوسكار وايلد، بودلير في حياته الغرامية.

وله في الصحف والمجلات العربية مقالات متنوعة وقصائد ودراسات وترجمات لو جمعت في كتب لأرعى عددها على العشرين ويزيد.

كانت بوارق العبقورية تنبجس حيناً بعد حين من بعد انطلاقاته وجولاته الأدبية، وكان شعره ولید حالات نفسانية، ذا نفس متقدة، فعبر في قوافيه عن آلام لا حد لها ولا طرف آلام من الحب والآلم من أعباء الحياة، كان لا ينظم إلا مهتاجاً، في ساعة يأس أو في ليلة خمر، فيؤثر شعره في قارئه. وقد سادته الكآبة، واعتاد أن ينهض باكراً فينصرف إلى الكتابة، وكان يصطاف في مصيف (حراجل) وصرف عشر سنوات في التغريد لإطراب الناس، فكان غزله المتعطف تشيع فيه ألوان الطبيعة ممتزجة بالوان كآبة النفس والمها، لم يقتصر شعر صباه على الغزل وحده، بل كان له من إحساسه المرهف ما يجعله شديد الانفعال تضطرب أعضابه لشتى العوامل التي تؤثر في نفسه، فما يزال يبيلورها الشعور والخيال حتى يفجرها في شعره نقمة على أشخاص يجد الأذية منهم، أو ثورة على الظلم والحكام الجائرين في وطنه.

على أنه بعد أن نضجت شاعريته واستوثق أسلوبه، صار لا يرضيه شعر صباه، وبلغت قمة شاعريته في (أفاعي الفردوس) وهي تحفة نادرة ولون جديد في الأدب العربي يفرد به، ويبيق له، لا تمتد إليه يد العناء، ولا يستطيع أي شاعر أن يأتي بمثله أو يدانيه في الوصف. إلياس أبو شبكة، يتميز نتاجه الإبداعى بغنى الأوجه وتعددتها. كان أبو شبكة "سريع الاندفاع وافر الحماسة، شديد التعصب لرأيه وقوله، وشعره خاصة، عنيف الرد على مناظريه، عصبي التعبير.. إلا أنه كان وشيك الهدوء قريب الرضا فيعود كما بدا صديقاً مخلصاً وقيماً، سليم القلب.

ولد أبو شبكة في عائلة لبنانية شهيرة، وأصبح مهتماً بالشعر في سن مبكرة. كان نجلاً أحد التجار، كما كان يتيم الأب في شبابه، وهي تجربة تميز أعماله السابقة. عمل إلياس مدرساً و مترجماً بالإضافة إلى نشر العديد من مجلدات الشعر كصحفي يكتب في العديد من الصحف والمجلات الأدبية العربية. لكونه متمسكاً بالمدرسة الرومانسية، آمن أبو شبكة بالإلهام وشجب السيطرة الواعية في الشعر. كانت قصائده قائمة، شخصية عميقة وغالباً ما تحتوي على نغمات كتابية تركز على صراعاته الأخلاقية الداخلية. كان بعض من أعمال أبو شبكة



كان إلياس مولعاً بشكل خاص بأعمال تشارلز بودلير وألفريد دي موسيه.

وأخذت شاعرية إلياس سبيلها إلى النضج الفني في مطلع العقد الرابع من القرن الفائت، بعدما أصدر ديوانه الشهير أفاعي الفردوس عام ١٩٢٨، الذي أحدث ضجة في الأوساط الثقافية العربية، إذ رسم بمهارة فنية عالية لوحات نابضة بالحياة لحالته النفسية النائرة في "أفاعي الفردوس" التي شدتها صلة تناظرية بديوان "أزهار الشر" لبودلير، من حيث واقعية وقائمة التصوير الحسي، وغرائبية الصور المشككة بتركيب لغوية مبتكرة، كما وشدت "أفاعي الفردوس" صلات بـ"ليالي" موسيه من حيث التمرد والانفعال والتوتر والقلق العاصف.

بعد أن فقد والده في سن مبكرة، اضطرت إلياس للتدريس من أجل كسب لقمة العيش. درس لفترة من الوقت في مدرسة البعثة اليسوعية ثم في معهد رهبانية أخوة المدارس المسيحية في الجميزة وأخيراً في مدرسة المقاصد. كان لإلياس تقارباً مع الصحافة منذ شبابه، وأقام رزقه من خلال مساهماته في عدد من الصحف اللدانية (الديرق، البيان، النداء، العسيفة، لسان الحال، والجمهور، المعرض والمكتشف، وصوت الأحرار) نشر أيضاً عدداً كبيراً من المقالات الصحفية حول مجموعة متنوعة من الموضوعات. كما راسل إلياس عدداً من الصحف المصرية مثل المقتطف والمساء. بناءً على طلب الناشرين، ترجم أبو شبكة إلى اللغة العربية عدداً من المواد الأدبية الفرنسية من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر، مثل للشاعر الفرنسي لامارتين: جوسلين ولاشوت دو أنج، كما ترجم لإدموند روستان لا ساماريتاين، ولروائي برناردين دي سان بيير: بول و فيرجيني (بالفرنسية: Paul et Virginie) و الكوخ الهندي (بالفرنسية: La Chaumière indienne) والعديد من الأعمال الأخرى لهنري بورديو وفولتير وأنطوان فرانسوا بريفو وموليير. كان إلياس يعمل خلال الحرب العالمية الثانية كترجم في خدمات الصحافة والإذاعة في المفوضية العليا الفرنسية. في عام ١٩٢٦، أنتج إلياس أول أحداثه الشعرية القيثارة. يشهد العمل على عدم خبرة الشاعر الشاب ولكن أيضاً على موهبته الواعدة. في عام ١٩٢٨، أنهى إلياس المريض الصامت، وهي قصيدة سرديّة تعد واحدة من أشهر أعمال أبو شبكة، تتنق من وسط التقاليد الرومانسية الأوروبية.

نشأ إلياس كمتسيحي متدين من قبل والديه المارونيين. تم قبوله في عام ١٩١١ في مدرسة مار يوسف للآباء العازرين في مدينة عينطورة القريبة حيث درس -من بين دورات أخرى- الأدب الفرنسي والعربي. قدمت نايلة إلياس إلى الشعر العربي وعلمته قصيدة طويلة كتبها عمها إلياس فرزان، والتي كانت -بحسب الشاب أبو شبكة- ملهمة للغاية. في عام ١٩١٣، بينما كان والد إلياس ذاهباً لتفقد عقاراته وعندما كان بين بورسعيد والخرطوم قاصداً الأخيرة بالسودان،

تعرض لهجوم من قبل قطاع الطرق الذين جردوه من ممتلكاته وقتلوه؛ ترك فقدان والد الشاب إلياس في حالة من الضيق العاطفي والانتكاب التي من شأنها أن تشكل بقية حياته. وظهرت آثار ذلك في باكورة أعماله القيثارة. واصل التيمم إلياس تعليمه في عينطورة حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عندما اضطرت إلى ترك المدرسة بسبب مشاكل مالية، على الرغم من أن المدرسة العثمانية أجبرت في وقت لاحق على الإغلاق من قبل السلطات العثمانية (١٩١٤-١٩١٨). استأنف إلياس دراسته في مدرسة الإخوة المريميين بجونبة قبل أن يعود بعد عام إلى مدرسة مار يوسف (عينطورة)، لكنه لم يتخرج قط بسبب تمرده على أحد أساتذته؛ وذلك في سنة ١٩٢٢.

ومع ذلك واصل تعليمه الذاتي وقراءة الكتب الدينية والأدب الرومانسي الفرنسي على نطاق واسع والتي ألهمت جهوده الأدبية الأولى. من بين المؤلفين الفرنسيين،

مثيراً للجدل في وقته، خاصةً مجموعته الشعرية أفاعي الفردوس التي كانت تعتبر فاحشة بسبب محتواها الجنسي العلني. ويعزى هاجس الشاعر بالآثار الروحية للكارثة التي ظهرت في كتاباته إلى الشعور بالذنب الذي تسببت به هروبه الجنسي مع العديد من النساء عندما كان متزوجاً وحتى وفاته من سرطان الدم في عام ١٩٤٧. دعا أبو شبكة إلى تجديد وتحديث الأدب العربي، وألهم الأجيال القادمة من الشعراء. تم الاحتفال بمساهماته في الأدب من خلال تحويل منزله في بلدته زوق مكابيل إلى متحف.

(الطفولة والشباب)

ولد الشاعر إلياس بن يوسف بن إلياس أبو شبكة في ٣ مايو ١٩٠٣ في بروفيانس بالولايات المتحدة ليوسف أبو شبكة -تاجر لبناني ثري-، وزوجته نايلة ني ساروفيم. جاءت والدته إلياس من عائلة معروفة بمواهبها الشعرية، وكان شقيق نايلة وعم الأم (إلياس فرزان) من الشعراء. غادر الزوجان لبنان للسياحة وزيارة عم نايلة إلياس فرزان في بروفيانس حيث أنجبت إلياس في مقر فيرزان. في عام ١٩٠٤، استقر يوسف ونايلة في بلدتهما الأصلية (الضيعة) زوق مكابيل في منطقة كسروان الحالية في جبل لبنان، وهي مدينة تطل على البحر الأبيض المتوسط وتشتهر بجمالها الطبيعي؛ وكان إلياس حينها لم يتجاوز السنة من عمره.

أبو شبكة ومُلهِماته الكثيرات



manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

عزى ريم



رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق



طبعت بمطابع مؤسسة منارات للإعلام
والثقافة والفنون



وترسم مقابلات مسلّم عن أبي شبكة صورة شاعر أدخل الى مدرسة الضيعة في ١٩٠٨ وليس الى معهد عينطورة في ١٩١١، كما جاء في معظم الدراسات. صورة ولد مشاكس، متشيطان، وتلميذ كسول في بداية حياته المدرسية لا ينازعه في الكسل سوى واحد يدعى حنا. وكان كلما سأله والده الدائم الأسفار عن حالته في المدرسة يجيبه بالقول: "أنا أشطر من حنا". كما ترسم صورة شاعر كان يستيقظ كل صباح بين الرابعة والخامسة ويبدأ الكتابة وركوة القهوة الى جانب، والنارجيلة، الى الجانب الأخر. وكان إذا بدأ النظم يحرك يديه في المأ كانه يلقي خطابا في مهرجان ويهز رأسه وتغنيه ورجليه كأنه مصاب بالحمى. صورة شاعر مرتب، نظيف، دائم الأناقة، حاضر النكتة.

في القسم الخاص بأبي شبكة ونسائه ينقل مسلّم عن أولغا شكوى أبي شبكة المتواصلة من طفره المادي، ويأتي شرحه لأسباب علاقته المتهبة بوردة، أي روز ساروفيم، ابنة عم أولغا، المتاهلة من قريبتها نقولا ساروفيم، ويستهل كلامه بالقول إنها ملهمة "أفاعي الفردوس" والعامل الأساسي في ثورته على المرأة. تليها المغنّية السمراء، التي نظم لها قصائد تغنيها في مقاهي بيروت وملاهيها، تسمرت عينها على سمرتها المصرية فور وقوع نظره عليها، والأشدّ جذبا مما تنقله الأساطير عن سمرة "أيزيس". لينتهي به المطاف عند عتبة سيّدة القصر المطل على صرح بكركي: ليلى معوض العظم المحوية بديوانه "نداء القلب" و"الي الأبد" التي احتفظت بحبها المعلن لإلياس أبي شبكة، رغم مرور أربعين عاما، حينئذ، على وفاته، وما زالت تحس بوجوده على الكرسي قبالتها وأنه سيطل بين لحظة وأخرى.

وبالفعل، فإن هذا الشاعر المغربي للأقلام يُعطيك الشعور بأنه يطل كلما لاحت دراسة تلقي أضواء جديدة على آثاره، أو على جوانب مخفية من حياته. شأنه شأن كل الشعراء والأدباء الذين يشوقوننا لمعرفة المزيد عن عوالم كونت شخصياتهم، وظروف طبعت عطائهم، وأحداث تركت تأثيراتها في مساراتهم. هي حياتهم التي تمرّ في السطور، وبينها، لكنّها حياة لا يُنهيه الموت.



لا تزال على قيد الحياة، وتقيم في بيت شقيقها يوسف، ولم يخل ضعف سمعها دون تواصله معها، ووقوفه على الكثير من الأمور المجهولة، من خلال مقابلاته معها. وفي عداد هذه الأمور مخطوطات نجحت في إقناعها باستنساخها. وهناك فرجينى، شقيقة الشاعر التي اضطرت حدة طباعها، وعنجيتها واستعلائها على الناس، الى إطالة أمد خطوبته، وإخفاء أمر زواجه بأولغا عنها، تجنبا للمشاكل معها، وانتهت الى دير الصليب بعد موت الجميع وبقاتها وحيدة في بيت أبي شبكة الواسع، كسائر البيوت القديمة العائدة للوجهاء والأثرياء.

محسن أ. يقين

أكثر ما يهزك وأنت تلقي نظرة على مقدّمة حنا مارون مسلم لكتابه "الخفايا في حياة إلياس أبو شبكة" هو قوله إنه عندما كان يقطع المسافة بين قريته في الشوف، والزوق في كسروان - مسقط رأس أبي شبكة، مُضيا الساعات موجهًا أسئلته إلى أشخاص يمكن أن يفيدوه بمعلومات عنه، فكان بعضهم يردّ مستفسرا: "ومن يكون هذا الذي تسأل عنه؟...". وذلك رغم ما أحرزه أبو شبكة من مكانة أدبية مرموقة، ناهيك عن سخروا منه لتكبّده مشقة المجيء كي يتعرّف إلى حياة أبي شبكة.

كان ذلك العام ١٩٧٨، يوم كان مسلّم يُعدّ دراسة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، في الجامعة اللبنانية. وهي الدراسة التي أنجزها وناقشها في العام التالي، فأضحت اليوم كتابا (طبع في مطبعة زكريا ومعوشي) يُدرج اسمه على لائحة الأدباء والباحثين الذين تناولوا هذا الشاعر كغوّاد حبيش، ورزوق فرج رزوق، وجورج غريب، ونازك سابا يارد، قبل أن يحدو حدوهم آخرون كخريستو نجم، وجوزيف أبي ضاهر، وهنري زغيب، وأنطوان القوّال، وسواهم. إلا أن مسلم كان أول من تميّز بالتركيز على حياة أبي شبكة وأدبه، وليس على تحليل نتاجه الشعري. فحياته تستدعي مزيدا من الضوء، ومقالاته الثرية صعب الوصول إليها في ما تناثر من مجلدات صحافية، ولم تكن قد جمعت بعد من ضمن مجموعة أعماله الكاملة، العام ١٩٨٥ (دار رواد النهضة ودار الأديسة)، وتحتاج إلى من يخرجها إلى الشمس. لذلك توصل مسلم إلى قناعة بأن من تقدموه بدراساتهم وتحليلاتهم عن أبي شبكة توصلوا إلى نصف الحقيقة عن الشعر، وأنه يجب أن يكمل النصف الثاني.

وكان لتعرّف مسلم إلى الكاهن طانيوس الهاشم فضل توجيهه في عمله، وإهدائه إلى أماكن وجود زوجة الشاعر أولغا ساروفيم، أي "غلاوا" الديوان، التي كانت

الياس أبو شبكة... ثروة شعرية

وفيق غريزي

لازمته عقدة الموت، فتمرد على النمط الشعري السائد في عصره. وقال في المدارس الشعرية: "المدارس الشعرية سجون، ونظرياتها قيود، والشاعر لا يعيش في جو العبودية هذا".

هرب من الموت الى احضان الطبيعة، وفجأة استعاد عقدة الموت وهو يرى نفسه مثل طائر مهاجمه العاصفة وتفترسه الكواسر.

إنه شاعر "افاعي الفردوس" الياس أبو شبكة فجر الحياة وغروبها

عام ١٩٠٣، ولد شاعرنا في مدينة بروفيدانس في الولايات المتحدة الأميركية، أثناء رحلة لوالديه الى تلك البلاد، وكان مولده في بيت خال امه الياس فرزّان. اما والداه فلبنانيان صميمان: ابوه يوسف أبو شبكة من زوق مكاييل، وامه من اسر عجلتون المعروفة، وحل في باريس وهو ابن بضعة اشهر، ثم عاد به والداه الى ارض الوطن.

عام ١٩١٣ نكب بمصرع والده، اذ اغتاله لصوص وهو في رحلة له من بور سعيد - مصر الى الخرطوم عاصمة السودان.

تلقى أبو شبكة علومه في مدرسة عينطورة، وفي السنة الاخيرة في هذه المدرسة نشب خلاف بينه وبين استاذة الخوري الياس الحويك.

وقد اتقن اللغة العربية الى جانب اللغة الفرنسية، وقيل انه نظم ثلاث رباعيات في ربع ساعة فقط باللغة الفرنسية، وكان في السادسة عشرة من عمره.

كان أبو شبكة مثالا للوفاء في صداقته وعنوانا للاخلاص، عام ١٩٤٤ شعر باعراض الداء الذي اشتدت وطأته عام ١٩٤٦، واستمر يصارع المرض حتى ٢٧ كانون الثاني، حيث اغمض عينيه بين يدي زوجته وحبيبته غلواء، وشيع الى مثواه الاخير...

شاعرية أبو شبكة

بدت بو اكبر شاعرية أبو شبكة منذ طفولته، وكان يقضي العطل الصيفية في بيته في زوق مكاييل، وفي السابعة عشرة من عمره ارسل احدي قضايده الى الاستاذ عبدالله لحدود. وفي عام ١٩٢٤ بعث باربوع قضايد الى مجلة "منيرفا" للادبية ماري يني، فنشرتها تباعا. وفي عام ١٩٦٦ صدرت له مجموعة القيثارة الشعرية، وعام ١٩٢٨ اصدر مجموعة "افاعي الفردوس"، وقبلها كان قد نشر مجموعته: "الالخان" و "نداء القلب".

في "القيثارة"، نجد صدقية نظرية تدفق القوى الروحية، التي يعبر عنها، حيث يقول:

بلوت الحياة فما من أنيس /

يؤاسي همومي وما من صديق /

تقول لي وإما رآني /

مجداً نَقف عَثرة في طريقي

الحب الخالد

كان أبو شبكة دون التاسعة عشرة يوم احب اولغا ساروفيم، فنما شعور العاشق نحو حبيبته، ولكنه لم يدرك كنهه حتى توجهت الى صور لتزور قريبة لها. وبعد عشر سنوات من الحب عام ١٩٣١، تزوج العاشقان ولم يكسر صفوهما مكر. أما افاعي الفردوس فكانت. فتحا جديدا. في عالم الشعر، وفيها شهوة وغرانا وتوبة، فشعور قلبه بالاثم يرفع صوته قائلا:

" رباهُ عَفوكَ إِنِّي كافرٌ جان

جَوَعْتُ نَفسي وَأَشْبَعْتُ الهَوِي الفاني

تَبِعْتُ في الناس أهواءَ مُحَرَمَة

وَقَلْبِي للناس قَوْلًا عَنهُ تَنهائي

ولم أَفقَ من جنونِ القلبِ في سَبْلي

إِلّا وَقَد مَحَتِ الأهواءُ إيماني "

لا يزال الياس أبو شبكة يحتل المكانة البارزة في تاريخ الشعر العربي، فقد كان شاعرا مبدعا خط لنفسه طريقه، وافصح بجرأة عن اعماق اهواء القلب ونزوات الجسد.

انه ثروة شعرية وأدبية، ليس للبنان فحسب، بل وللأمة العربية...

